□ الشيخ عصري الباني (*)

تقديم

حدثٌ عظيمٌ هو ذاك الَّذي مرَّ على الأُمَّة الإسْلاميَّة في الآونة الأخيرة، حدثٌ يَسْتدعي منَّا التَّمهُّل والتَّريُّث، بل التَّوقُّف والتَّدبُّر، الشَّيء الكثير. حدثٌ من المفروض بنا أنْ نجْعله نصْب أعيننا كأفرادٍ من هذه الأُمَّة، كمسْؤولين عن سلامتها وعن الحفاظ عليْها، كلٌّ بقدره وبحسب ما له من الموقعيّة والمكانة التي يَشْغلها، حدثٌ يُخاطب مشاعر وأحاسيس كُلِّ الغيارى الَّذين يُريدون الخيْر والتَّقدُّم والرُّقيّ لهذه الأُمَّة، لينهضوا لمواجهةٍ شريفةٍ شديدةٍ شجاعةٍ لهذا الخطر الكبير المُحْدق والمحيط بها، والذي يتربَّص بنا شرّاً منذ بداية الخلْقة وإلى يوْم يُبْعَثون..

ويتمثَّل هذا الحدث، في الانتصار العظيم السَّاحق الذي حقَّقتْه الأيادي البيضاء لرجالٍ ربّانيِّين من حزب الله والمقاومة الإسْلاميَّة في لبنان الحبيب، هذا الانتصار الذي دوَّى صداه في الآفاق، وأدْخَل إلى قلوب المُسْتكبرين ونفوسهم الرُّعْب والذُّعْر والهلع، فكان «**الجيْش الذي لا يُقْهَر**» أُسْطورةً لا تُذْكر، وكانتْ

(*) ماجيستر في الفقه والمعارف الإسلاميَّة.

«دوْلة الشَّعْب المُخْتار» كياناً مُشَتَّتاً ممزَّقاً تُكال فيه التُّهم بالإخفاقات والهزائم..

هذا كلُّه، مع علْم الجميع واعترافهم بالحجْم الهائل للإمكانيّات الَّتي يمتلكها هذا الكيان الغاصب على المستويات المختلفة العسْكريَّة والماديَّة والتِّقنيَّة والاقتصاديَّة والبشريَّة، مضافاً إلى الدَّعْم الدُّوليِّ الواسع النِّطاق. وفي مقابل ذلك: الإمكانات المحدودة والمتواضعة الَّتي اسْتطاع حزب الله في أعوامٍ متواصلةٍ من الجهْد الحثيث أنْ يحوزها ويَحْصل عليْها.

والَّذي يزيد من غرابة هذه المفارقة، وبالتَّالي يدْعونا للتأمُّل أكثر، أنَّ لنا نحْن، كأمَّةٍ عربيَّةٍ وإسلاميَّة، تجْربةً سابقةً في الحرْب مع إسرائيل، حين اجْتمع لمحاربتها عددٌ من جيوش الدُّول العربيَّة بأسلحتهم والعتاد، ومع ذلك، فلمْ يتمكَّنوا من إنجاز القليل القليل ممّا أنجزه رجالٌ قليلون في حزب الله.

إنَّ هذا كلّه جديرٌ بأنْ يُحرِّك العقول والأقلام تجاه تمحيص هذه الوقائع الَّتي أشرْنا إليْها، وتحليل أسبابها واستخراج نتائجها، لغرض استخلاص الدُّروس والعبر واستشراف المُسْتقبل من خلالها.

ولسْنا هنا بصدد دراسة هذا الموضوع الواسع من جميع حيثيّاته، إذْ لا تتَّسع لدراسةٍ كهذه مقالةٌ عابرة. وإنَّما أردْنا بحْثه من زاوية ما له من جذورٍ وأُسسٍ ومُرْتكزاتٍ في أشْرف كتابٍ بعد القُرْآن الكريم، في «نهج البلاغة» الكتاب الذي يُمْكن عدُّه بحقٍّ، دُسْتوراً للحياة ككلّ، لحياة الأمم والدُّول والمُجْتمعات والأفراد على حدٍّ سواء، كيف! وقد صدر من القرآن النَّاطق، الشَّارح للقرآن الصَّامت.

والَّذي حداني إلى التَّركيز على هذه الجهة، هو نفْس أدبيّات المقاومة إبّان احتدام المعركة مع إسرائيل، سواء تلْك التي وردتْ على ألسنة قادة المقاومة، أم تلْك التي جاءتْ في بياناتهم، السِّياسيَّة منها والميدانيَّة؛ فإنَّ النّاظر في مفردات هذه البيانات والخطابات، سيُلاحظ، وبعْد نظْرةٍ عابرة، أنَّها مشحونةٌ بكلمات

الأمير عليه السلام وحكمه وخطبه.. ولا سيَّما تلك التي وردتْ في كلام سماحة الأمين العام لحزب الله السَّيِّد حسن نصر الله حفظه الله في مقابلاته أو خطاباته المتلفزة، وبالأخصّ، تلك التي استخدمها في ردِّه المؤثِّر على الرِّسالة التي حملتْها إليْه رياح العشْق التي تعتصف في قلوب المجاهدين ونفوسهم والأرواح.

إنَّ أدلَّ دليلٍ على تأثُّر أدبيّات خطاب المقاومة بالكلمات النُّورانيَّة العلويَّة الواردة في النَّهْج الشَّريف، هو حجم المساحة التي تحْتلُّها هذه الكلمات في الخطاب والفكر والعمل المقاوم.

وبعد هذا، فلمْ نجدْ وسيلةً نتعرَّف من خلالها على الثَّقافة التي صنعتْ هؤلاء الرِّجال، ورفعتْ الرُّؤوس والهامات، خيْراً من التدبُّر والتمعُّن في كلام عليٍّ عليه السلام، لنعْرف من خلاله ما الذي يَعْنيه الانتصار؟! وما هو السِّرُّ المؤدِّي إلى حصوله في ظلِّ عدم تكافؤ القوى؟!

المبرِّر لعمليَّة الوعد الصَّادق

وقبل الدُّخول في الأبعاد والعوامل التي أدَّتْ إلى هذا الانتصار، ينبغي تسليط الضَّوْء شيئاً ما على العمليَّة التي أفْضتْ إلى أسْر اثنيْن من الجنود الصَّهاينة، وهي عمليَّة «**الوعد الصَّادق**»، التي هدفتْ إلى مبادلتهما بالمُعْتقلين «الرَّهائن» اللُّبنانيِّين والفلسطينيِّن، والذين ينوف عددهم في السُّجون الإسرائيليَّة على العشرة آلاف، وفيهم النِّساء والأطفال. فهل هناك مبرِّرٌ شرْعيٌّ قانونيٌّ للقيام بعمليَّةٍ كهذه في المنهج العلويِّ أم لا؟

وعندما نقوم بجوْلةٍ استقرائيَّةٍ على نصوص نهج البلاغة، نستطيع أنْ نخرج بهذه النَّتيجة، وهي أنَّ الأمير عليه السلام كان يحثُّ النَّاس ويُحرِّضهم على النُّهوض والقتال في حالاتٍ لا تقلُّ عن هذه ضرراً، ولا تزيد عليْها خطراً وبأساً، بل كان يَعْتبر القعود عن القتال وعدم التحرُّك فضيحةً وعاراً، والموْت حسْرةً وكمداً على ترْك الجهاد عزّاً وفخاراً..

فهو يقول عليه السلام:

«وهذا أخو غامدٍ[1] قد وردَتْ خيْله الأنبار[2]، وقد قتل حسّان بن حسّان البكْريّ، وأزال خَيْلكم عن مسالحها[3]، ولقد بَلَغني أنَّ الرَّجل منهم كان يَدْخل على المرأة المُسْلمة، والأُخْرى المعاهَدة[4]، فينتزع حِجْلها[5] وقُلبها[6] وقلائدها[7] ورُعُثها[8]، ما تَمْتنع منه إلَّا بالاسترجاع[9] والاسترحام، ثمَّ انْصَرَفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كَلْمٌ[10]، ولا أُريقَ لَهُمْ دم، فلو أنَّ امْرءاً مُسْلماً مات منْ بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً[11]».

فقد تناهى إلى سمْعه عليه السلام أنباء الفاجعة التي جرتْ في الأنبار، والتي ما كانت لتَحْدث لولا سكوت أهل العراق وتخاذلهم وقعودهم عن حرب معاوية وقتاله، فإنَّ هذا التَّخاذل كان هو المحفِّز الذي دعا معاوية إلى إرسال سفيان بن عوْفٍ الغامديّ في ستَّة آلاف مقاتلٍ، فدخل بهم الأنبار غازياً، وكان الإمام عليه السلام قد ولَّى عليْها حسّاناً بن حسّان البكْريّ، والذي كانت له وقفةٌ مشرِّفةٌ في معركةٍ تصدَّى فيها لحمْلة الغزْو هذه، وأدَّتْ في نهاية الأمر إلى استشْهاده مع ثلاثين من أنصاره؛ ولمْ يقفْ هذا الهجوم الإرهابيّ واللَّاإنسانيّ على المناطق الآمنة عند هذا الحدّ، بل إنَّ جُنْد الشّام أزالوا خيْل أهل العراق عن حدودهم، فدفعوهم عنها، واحتلُّوا ديارهم، واستولوا عليْها؛ ثمَّ كانتْ القمَّة في الهمجيَّة والإسفاف والانحطاط الأخلاقيّ، عندما كان الرَّجل منهم، يمارس أبْشع الجرائم وأفظعها وأكثرها بُعْداً عن الحشْمة والعفَّة والغيرة، والتي يدْعو إليْها العقل والفطْرة، قبل الإسلام وسائر الدِّيانات، ليتخطَّى كلَّ الحدود ويَخْترق كلَّ الحجب، فينتهك حريم البيوت المستورة ويَهْتك خصوصيّاتها وأسرارها، ولئنْ كنَّا نستطيع تبرير هجومهم على الرِّجال والمقاتلين، فإنَّنا حتْماً، لنْ نستطيع أنْ نجد لهم تبريراً لهذه الأفعال الشَّنيعة، التي تسْتنكرها كافَّة الأعراف العقلائيَّة والمُجْتمعات الإنسانيَّة، إذْ كان الرَّجل منهم يُقْدم على الدُّخول على المرأة

الأجنبيَّة، ولا يتورَّع عن مسِّها، وهتْك ما لا يَظْهر منها إلَّا على زوْجها، فينتزع خلخالها من رجْلها، وسوارها من يدها، وقلائدها من رقبتها، والأقراط من أذنيْها، وهي مع ذلك لمْ تشهر سيْفاً ولم تطْعن برمحٍ، بل هي لا تعرف من ذلك شيئاً، ولمْ تكنْ من الكفّار الحرْبيِّين، بل هي إمّا مُسْلمةٌ مخدَّرة، أو ذمِّيَّةٌ معاهدة، وحال المرأة على ما هو معروفٌ من الضَّعْف وقلَّة الحيلة، وصوْتها المُرْتجف يعْلو استغاثةً واسترحاماً واسترجاعاً، ومع ذلك لمْ يرْعوا حُرْمتها، ولمْ يحفظوا عفَّتها، ولمْ يُغثْها من المُسْلمين أحدٌ، ولمْ يكنْ فيهم رجلٌ «رجلٌ» يَدْفع عنها ظلْماً ولا ضيْماً؛ فلا غرْو بعْد ذلك، أنْ نرى الإمام عليه السلام، وهو الغيور، شديد الحنق، بادي الغضب، ولا عجب أنْ يُوبِّخ القادمين الذين شهدوا هذه الفاجعة، ولمْ يُقدِّموا من أنفسهم شيْئاً لدفْعها، بل تهاونوا وتخاذلوا، وتركوا جُنْد الباطل يُغيرون ولا يُغار عليْهم، ويَقْتلون ولا يُقْتل منهم أحد، ولا ينزف منهم قطرة دمٍ، ولا عجب أنْ يكون الموْت أسفاً وغمّاً وكمداً، قليلاً في حقِّ هؤلاء، بل جديراً بهم، إذْ مَنْ لا يُرْجى في حياته خيْرٌ لعيال الله، فموْته، ولا شكَّ، أشرف من حياته.

وليستْ هذه الحادثة الأليمة في تاريخ الإسلام، بأقلِّ من الفجائع التي تعْصف بجوانب ديار الإسلام في زماننا هذا، ففي السُّجون نساءٌ وأطفال، والسَّجّان هنا ليس كافراً فحسْب، بل صهيونيٌّ، لا يرى للإنسان قيمةً إذا خالفه الرَّأي، فضْلاً عن المُسْلم الذي إسْلامه دين حياةٍ وحركةٍ ونضالٍ وحرِّيَّة ورفْضٍ لكلِّ أشكال الظُّلْم والعبوديَّة؛ ولمْ يُحَرِّكْ أحدٌ من زعماء العرب وحُكّامهم ساكناً، وهمْ على رأْس جيوشٍ جرّارة، وفي متناول أيديهم إمكاناتٌ هائلة، فكان لا بدَّ من النُّهوض والقيام، وكان لا بدَّ من وقفةٍ عزيزةٍ شامخة، تخْرق هذا السُّكون المذلّ، فصدح صدا صوْت عليٍّ عليه السلام، هادراً صاخباً، يضجُّ حياةً، على لسان قائدٍ فيه نفْحةٌ عَلَويَّة: «**نحن قوْمٌ لا نترك أسرانا في السُّجون**»، وكان الوعْد، وقد قدَّر الله له الصِّدْق والتحقُّق.

أسباب انتصار المقاومة في لبنان

لم تُغْفِل نصوص النَّهْج الشَّريف الأسباب والأبعاد التي لو توفَّرتْ لكانتْ مؤدِّيةً إلى تحقُّق الانتصار الإلهيّ، وهذه الأسباب هي:

١) الاستقامة

قال عليه السلام: «**وإنّي متكلِّمٌ بعِدة الله وحجَّته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١٢]، وقد قُلْتمْ: ربَّنا الله، فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمْره، وعلى الطَّريقة الصَّالحة من عبادته**»[١٣].

فالشَّرْط الأساسيّ للجهاد، وقبل الوصول إلى مرحلة الحديث عن الانتصار، هو الإيمان بالله تعالى، والاعتراف به ربّاً وخالقاً ومدبِّراً للأُمور، وأعني بالاعتراف: الاعتراف الجارحيّ والجانحيّ معاً، اللِّسانيّ والقلْبيّ، القوْليّ والعمليّ، فهذه هي حقيقة الإيمان والعبوديَّة.

وتحتاج هذه الحقيقة إلى ما يُرسِّخها، ويمْنع زوالها وتزلزلها، تحتاج إلى حصْنٍ لها منيع، وكهفٍ حريز، يُحافظ عليْها، ويعمِّقها في نفْس المؤمن، تحتاج إلى مجاهدةٍ وتضْحية، وبالتَّعبير القرآنيّ، فهي تحتاج إلى: الاستقامة، فالاستقامة ـ وهي الحرْص والثَّبات على الإيمان، ولزوم الطَّريق الوُسْطى دونما ميْلٍ ولا اعوجاج ـ وظيفةٌ تُعادل في أهمِّيَّتها وشرفها وقدسيَّتها وظيفة أصْل الإيمان، والاعتراف بالرُّبوبيَّة له تعالى، فإذا قالوا ربُّنا الله، خوطبوا بلزوم الاستقامة والثَّبات عليْه، وإذا تسنَّى لهم ذلك، فستكون النَّتيجة الحتْميَّة التي لا تردُّد فيها ولا تبدَّل: أنْ يكونوا مهْبطاً لتنزُّل الملائكة، والملائكة تتولَّى هدايتهم وتدبير أمورهم وشؤونهم، في الدُّنْيا كما في الآخرة، وتنزل عليْهم بإزاحة الخوْف والحُزْن عنهم، فكلُّ خوْفٍ مدفوعٌ عنهم، دنيويّاً كان أم أُخرويّاً، إذِ الخوْف هو ما يكون ناشئاً من مكروهٍ متوقَّع، كالعذاب الذي يخافونه، والحرْمان من الجنَّة الذي يَخْشونه،

والحُزْن هو ما يكون مسبَّباً عن مكروهٍ واقعٍ وشرٍّ لازمٍ، كالسَّيِّئات التي يحزنون لاكتسابها، والخيرات التي يغْتمُّون لفوْتها عنهم، والملائكة قد أخذوا على عاتقهم، بأمْرٍ من الله تعالى، وبسبب هذه الاستقامة التي قد ضحُّوا لأجل الحصول عليها، أخذوا على عاتقهم أنْ يُطيِّبوا خواطرهم أنَّهم في مأمنٍ من أنْ يخافوا شيئاً أو أنْ يغْتمُّوا ويحزنوا لشيءٍ، ثمَّ يبشِّرونهم بالجنَّة الموعودة الخالدة.. وهذا ليس مُخْتصّاً بالآخرة فقط، وإنْ كانت الآية الشَّريفة تتحدَّث عنها؛ لأنَّ إثبات البشارة في وقْتٍ، لا يَعْني بالضَّرورة انتفاءها في وقْتٍ آخر.

وعند الرُّجوع إلى المنهج الَّذي سارتْ عليْه المقاومة الإسلاميَّة في لبنان، نجد، وباعتراف العدوِّ قبل الصَّديق، أنَّها من أكثر الحركات التحرُّريَّة مصداقيَّةً ونزاهةً، إنْ في محيطها الدَّاخليّ وفي البيت الدّاخليّ اللُّبنانيّ، أو على المُسْتوى الدُّوليّ والعالميّ.

ونستطيع هنا أنْ نُشير إلى بعض مظاهر هذه الاستقامة وتجلِّياتها:

١. شهد لبنان حرباً أهْليَّةً ضروساً، دامت فيه خمس عشرة سنةً، لمْ تُبْقِ فيه شيئاً ولمْ تذرْ، سلاحها المجازر والمذابح، وقد ارتُكب فيها من التَّجاوزات الأخلاقيَّة ما تقْشعرُّ له الأبدان، وتتقزَّز منه النُّفوس؛ وقد كانتْ المقاومة طيلة هذه المدَّة في منْأىً عنها، رغْم حيازتها للسِّلاح، ورغْم تهَدُّد وجودها وكيانها، بل كانت أفواه بنادقها مصوَّبةً دوْماً نحو جهةٍ واحدة، هي جهة العدوِّ الإسرائيليّ الغاشم، فإنَّه هو العدوّ الحقيقيّ، بل العدوّ الوحيد الذي يتربَّص الشَّرّ بهذا الوطن، بكُلِّ أطْيافه وفئاته وألوانه وطوائفه، فكُلُّ النَّاس مهدَّدون، وجميعهم أمام الآلة العسْكريَّة العمياء سواسية؛ إذْ هم ليسوا من شعْب الله المُخْتار، بل إنَّ إسرائيل كانتْ، ولا تزال، الرَّماد الذي يُشْعل نار الحرْب الأهليَّة والفتن الدّاخليَّة في كلِّ آونةٍ وزمان، وفي كلِّ مدينةٍ وقريةٍ ومكان.

٢. يشْهد العدوّ قبل الصَّديق، والخصْم قبل الحليف، والقريب قبل البعيد،

أنَّ المقاومة الإسلاميَّة لمْ تتورَّط في ملفّات الفساد الدَّاخليّ التي شُرِّعتْ أبوابها في أغلب الحكومات التي تداولت أيّام لبنان في العصْر الحديث، ولمْ تكنْ هذه الممارسة العمليَّة الشَّريفة والنَّزيهة مُخْتصَّةً بالفترة التي لمْ تكن المقاومة فيها ممثَّلةً في المجلس النِّيابيّ، أو مشاركةً بوزرائها في الحكومة، بل لمْ نشْهد أنَّ أحداً من أعداء المقاومة وخصوم خطِّها السِّياسيّ، رغْم كثْرتهم، قد تجاسر على اتِّهامها بالفساد، بل ولا بالتَّواطؤ عليه والمشاركة فيه. وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، فإنَّما يدلُّ على استقامةٍ منقطعة النَّظير في الأوساط السِّياسيَّة، المحلِّيَّة منها والعالميَّة.

٣. عرفتْ السَّاحة اللُّبنانيَّة مسؤولين وزعماء كثر، وجلَّ هؤلاء الزُّعماء عاشوا ويعيشون حياة ملْؤها الغنى والرَّفاهيَّة والتَّرف، فاتَّخذوا لأنفسهم الدُّور والقصور، والخدم والحشم، والمرافقين والمواكب، وطفحت البنوك بأرصدتهم، والأسواق بشركاتهم التي تُموِّلها أموال الخزينة العامَّة المنهوبة، والمشاريع بحصصهم المهيمنة المغصوبة؛ وفي زاويةٍ نائيةٍ عن هذه الحياة القارونيَّة المخمليَّة، خرج قادة المقاومة والمسؤولين فيها ليُعْلنوا رفْضهم القاطع لهذا النَّهْج المتعالي، ولمْ يكنْ التَّعبير عن هذا الرَّفْض تعبيراً بالقوْل فحسْب، بل بالعمل والسِّيرة، فهذه عامَّة النَّاس في لبنان تشْهد لهم، وتعْرف بيوتهم، وتقرُّ بنظافة كفِّهم، وبُعْدهم عن المحاصصة ومشاريع النَّهْب والسَّلْب، ولا يَحجبهم عن النَّاس شيءٌ، إلَّا أوضاعٌ حرجةٌ أمنيَّةٌ تقتضيها الظُّروف الميدانيَّة.

وهم بذلك، يقْتدون بنور إمامهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول:

«إنَّ الله تعالى فَرَض على أئمَّة العدْل أنْ يُقَدِّروا أنْفسهم بضَعَفة النّاس، كيْلا يتبيَّغ[١٤] بالفقير فقْره»[١٥].

فإنَّ تبوُّأ هذه المناصب، يجْعل الشَّخْص في محلٍّ يتطلَّع إليْه جميع النَّاس، ويُدقِّقون في كافَّة تصرُّفاته وأعماله، وفيهم الغنيُّ والفقير، ولأجل ذلك فرض الله سبحانه على أئمَّة العدْل أنْ ينزِّلوا أنفسهم منزلة الفقراء، وأنْ يتشبَّهوا بهم،

ولا يترفَّعوا عنهم؛ لأنَّ الفقراء والمستضعفين إذا رأوا قادتهم وزعماءهم لا يتميَّزون عنهم، بل يعيشون عيشتهم، ويسلكون نفْس سبلهم، هان عليْهم ما يُقاسونه من الفقر وضيق الحال، ولئلاَّ يتحرَّكوا انتقاماً من فقْرهم فينشأ عن ذلك خرابٌ في البلاد وإهلاكٌ للعباد، وذلك من أعظم الفساد.

ومن روائع كلمات الأمير عليه السلام في هذا المضْمار، وكلُّ كلماته رائعة، قوْله:

«ولكنْ هَيْهاتَ أنْ يَغْلبني هواي، ويقودني جَشَعي[16] إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز[17] أو اليمامة[18] مَنْ لا طَمَع له في القُرْص، ولا عهْد له بالشِّبَعِ، أو أبيتُ مِبْطاناً[19] وحوْلي بطونٌ غرْثى[20]، وأكبادٌ حَرَّى[21]، أو أكون كما قال القائل:

وحسْبُكَ داءً أنْ تبيتَ ببِطْنةٍ وحَوْلَكَ أَكْبادٌ تَحِنُّ إلى القِدّ[22]»[23].

فهو عليه السلام لمْ يُعْرض عن هذه الملذّات عجزاً عن تحصيلها، ولا جهْلاً بالسُّبل المؤدِّية إليها، بل لو شاء لاهْتدى إلى مصفَّى عسلها ولذيذ أطايبها، ولكنَّه حجز هواه، وقضى على الجَشَع البشريّ في نفْسه، ونظر بعيْن المسؤول الحريص على رعيَّته، الرَّؤوف بهم، المهتمّ لهمومهم وشجونهم، المواسي لهم، نظْرة كريم النَّفْس، نظْرة مَنْ قرأ وقائع الأُمور وعرف حقيقتها، فهو يرى النَّوْم شبْعاناً مع عدم المبالاة بمَنْ حوْله، ولو في أقاصي الأرض، داءً وأيُّ داء، مُسْتَشْهداً لذلك بكلامٍ لحاتم الطّائيّ كريم العرب[24].

٢) الاستعداد للتَّضحية في سبيل المبدأ

الأُمَّة الإسلاميَّة جسدٌ واحد، وبيْتٌ واحد، فإنْ تعرَّض جانبٌ من هذا البيت، أو عُضْوٌ من هذا الجسد، لنكسةٍ ما أو فتنةٍ أو بلاء، فعلى جميع أفراد الأُمَّة أنْ يهبُّوا لإصلاح ما فسد، أو تحصين ما تعرَّض للخطر؛ لأنَّ أثر الخطر يعمُّ كافَّة الجوانب في حياة هذه الأُمَّة، وليس أثراً موْضعيّاً يَقْتصر ضرره على الموْضع الذي حلَّ فيه. وعليه: فإنَّ الواجب المُلْقى على عاتق الأُمَّة أنْ تهبّ، بقضِّها

وقضيضها، عند الشُّعور بأيِّ خطرٍ، لدرْئه ومدافعته، مهما احتاج من جهودٍ وتضحيات؛ لأنَّ الهروب والتَّكاسل والتَّخاذل من شأنها أنْ تفاقم المُشْكلة، لا أنْ تحلُّها.

وهذا هو ما أشار إليْه أمير المؤمنين عليه السلام، في معرض إجابته عن سؤالٍ وجَّهه إليْه رجلٌ قائلاً: أخبرْنا عن الفتنة؟! وهل سألْتَ عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام:

«لمّا أنْزَلَ الله سبحانه قوْله ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٢٥]، علمْتُ أنَّ الفتْنة لا تَنْزل بنا ورسولُ الله صلّى الله عليه وآله بيْن أظْهُرِنا. فقُلْتُ: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أَخْبَرَكَ الله تعالى بها، فقال: يا عليّ، إنَّ أمَّتي سيُفْتَنون مِنْ بَعْدي، فقُلْتُ: يا رسول الله، أَوَلَيْسَ قد قُلْتَ لي يَوْمَ أُحُدٍ حيْث استشْهد مَنْ استشْهد من المسْلمين، وحِيزَتْ عنِّي الشَّهادة، فشَقَّ ذلك عليَّ، فقُلْتَ لي: أَبْشِرْ، فإنَّ الشَّهادة مِنْ ورائك، فقال لي: إنَّ ذلك لكذلك، فكيْف صبْرُك إذاً؟ فقُلْتُ: يا رسول الله، ليْس هذا منْ مَواطن الصَّبْر، ولكنْ منْ مواطن البُشْرى والشُّكْر. فقال: يا عليّ، إنَّ القوْم سيُفْتَنون بأموالهم، ويَمُنُّون بدِينهم على ربِّهم، ويتمنَّون رحْمته، ويأْمَنون سَطْوته، ويَسْتحلُّون حرامه بالشُّبهات الكاذبة، والأهواء السَّاهية، فيَسْتحلُّون الخَمْر بالنَّبيذ، والسُّحْت بالهديَّة، والرِّبا بالبَيْع. قُلْتُ: يا رسول الله، بأيِّ المنازل أُنْزِلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردَّةٍ أم بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة»[٢٦].

فالأُمَّة التي كانتْ عزيزةً مرفوعة الرَّأْس على عهْد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، تراجعتْ وانتكستْ رايتها بعد ارتحاله عنها، وما ذلك إلَّا نتيجةً لهروب البعْض من تحمُّل مسؤوليّاتهم في الوقوف بوجْه الفتنة، والانقلاب على الأعقاب بعْد وفاته صلى الله عليه وآله. وهذا كلُّه يؤكِّد على ضرورة الاستعداد وتجهيز النَّفْس للتَّضْحية وسدِّ الثَّغرات، كما جاء في قوْله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ

عندهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[٢٧]، فالآية الشَّريفة تتحدَّث عن سُنَّة الله التي أرادها لمسيرة المؤمنين من عباده، أنْ يا عبادي المؤمنين، إنْ أردْتم البُشْرى بتكفير السَّيِّئات والعفو عن الخطيئات، وبدخول الجنَّة آمنين فيها منعَّمين، فالطَّريق لذلك مغروسةٌ بأشواكٍ من الأذى والهجرة وترك الدِّيار والأحبَّة، والقتْل والقتال، ومن دون ذلك، فلا فوْز في الدُّنيا، ولا كرامة في الآخرة.

وقد تجلَّتْ هذه التَّضحية بأبهى صورها فيما حدث في لبنان مؤخَّراً؛ لأنَّ تلك الحرب القاسية، وما رافقها من ويْلاتٍ وأحداثٍ ومآسٍ، كانتْ ابتلاءً عظيماً للأُمَّة والمسلمين جميعاً، وقد كان في كيفيَّة مواجهة هذا الابتلاء والتَّعامل معه طريقان:

١. التَّسليم للعدوِّ بلا قيْدٍ ولا شرْط، واتِّخاذ القرار بعدم المقاومة، وهو ما كان يَدْعو له المتخاذلون وأصحاب النَّفْسيّات المنهزمة وأهل الأطماع والأهواء والعمالة.

٢. عقْد العزم راسخاً على الصَّبْر والقتال ومقابلة العدوان بالتصدِّي والصُّمود.

ولولا أنَّ ثلَّةً من المجاهدين في لبنان اختارتْ هذا الطَّريق المشرِّف، وثابرتْ على سلوكه بكُلِّ صدْقٍ وعزيمة، لكانت النَّتيجة الحتْميَّة هي عموم البلاء والهزيمة والذِّلِّ الذي لا يَسْتثني أحداً، حتَّى المُسْتسْلمين والخانعين والعملاء.

إنَّ اختيار هذا الطَّريق، وهو طريق ذات الشَّوْكة، هو الذي حقَّق النَّصْر المبين، وهو الذي شكَّل ضماناً لاستقرار لبنان، وحقَّق التَّوازن في المنطقة؛ لأنَّ البسالة التي واجهتْهم في تلال لبنان وأودية قراه الجنوبيَّة، والإخفاقات التي حلَّتْ بهم وبآلتهم الحربيَّة، والنَّفْسيّات المهزومة التي خرج بها النُّخْبة من جنودهم، علَّمتْ إسرائيل درْساً لن تنساه، علَّمتْها أنَّ لبنان ليس مُتنزَّهاً لجنودها ودبّاباتها وطائراتها، وأنَّ الإقدام على ارتكاب أيَّة حماقةٍ سيعود عليها

هي بعواقب وخيمةٍ.

وما يتوجَّب على أبناء الأُمَّة هو التَّأكيد على هذه الرُّؤية، أعني: لزوم الاستعداد للتَّضحية والتَّصدِّي لأيِّ خطرٍ أو عُدْوانٍ يُواجههم؛ إذْ لا يُمْكن للأُمَّة أنْ تَحْيا حياة العزَّة والشَّرف إلَّا من خلال المحافظة عليْها.

٣) الطّاعة لله ولرسوله ولوليِّ الأمر

التَّقوى كنزٌ عظيم، يحتوي على صنوف الأماني والآمال، دُنْيويَّةً وأُخرويَّةً، مادِّيَّةً ومعنويَّةً، فإنَّ التَّقْوى هي لزوم طاعة الله تعالى وطاعة نبيِّهﷺ وأُولي أمْره، وإنَّ الله تعالى لمْ يُكلِّفْنا إلَّا بما يَرْجع إلى مصْلحتنا نحن، وبما فيه سعادتنا نحن، والنَّبيُّﷺ هو صاحب وحْيه تعالى، ومبلِّغ أمْره وشرْعه، فأوامره أوامر الله، ونواهيه نواهي الله، فتكون طاعته طاعةً لله، ويكون عصْيانه عصْياناً لله، وأولو الأمر هم حفظة الوحْي والحريصون على تطبيقه وتنفيذه، والأعلم به، والأقدر على تفسيره، فهم كذلك، أوامرهم عين أوامر الله، ونواهيهم عين نواهيه، وليس لهم شرْعٌ ولا تكاليف وراء شرْع الله ونبيِّه، فمنْ ثمَّ كانتْ طاعتهم طاعةً لله ورسوله، وفي هذا يقول أمير المؤمنينعليه السلام:

«وازْدد إلى الله ورسوله ما يُضْلِعك[٢٨] من الخطوب، ويَشْتبه عليْكَ من الأمور، فقد قال الله تعالى لقومٍ أحبَّ إرْشادهم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[٢٩]، فالرَّدُّ إلى الله الأخْذ بمُحْكَم كتابه، والرَّدُّ إلى الرَّسول الأخْذ بسُنَّته الجامعة غيْر المفرِّقة»[٣٠].

فليس لأُولي الأمر أنْ يضعوا حُكْماً جديداً، ولا أنْ يَنْسخوا حُكْماً ثابتاً في الكتاب والسُّنَّة، بل ليس عندهم إلَّا ما لله ورسوله من الأحكام، والتي هي موجودةٌ ضمْن الكتاب الشَّريف والسُّنَّة المباركة[٣١]. وقد بيَّنعليه السلام أنَّ الائتلاف والاتِّفاق ووحْدة المُجْتمع الإسْلاميّ لا يكون إلَّا بالطَّاعة والرُّجوع إلى أُولي

الأمر الذين بواسطتهم نعْرف أحكام ربِّنا وسنَّة نبيِّناﷺ، ممّا يَعْني أنَّ سبب التَّفرُّق والتَّشتُّت والضَّعْف هو ترْك هذه الطَّاعة وإهمالها.

وهذه الطَّاعة، نجدها ونجد آثارها وعلائمها في الانتصار الكبير للمجاهدين في لبنان، وقد تمثَّلتْ الطَّاعة في حركتهم ومعركتهم الأخيرة في مواقف ثلاثةٍ رئيسيَّةٍ، هي:

الموقف الأوَّل:

وهو ما تجلَّى في البداية بالْتزام المجاهدين الْتزاماً تامّاً منقطع النَّظير، بأوامر القيادة في عمليَّة الوعْد الصَّادق، بكُلِّ تفاصيلها وحذافيرها، في حين كان يُمْكنهم أنْ يَهْربوا من تأدية واجبهم الذي يَفْرضه عليْهم العقْل قبل الدِّين، ويُبرِّروا سكوتهم وضعْفهم وتخاذلهم وقعودهم، تارةً بشدَّة الحرِّ، وأُخْرى بشدَّة البَرْد، وثالثةً بغير ذلك، كما فعل بعْض مَنْ كان في زمان أمير المؤمنينعليه السلام، كما أخبرنا به هو نفْسهعليه السلام، متحدِّثاً بلسان مَنْ يَعْتصر قلْبه المرارة والأسى قائلاً:

«فإذا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيْر إليْهم في أيّام الحَرِّ قُلْتُمْ: هذه حَمَارَّة[٣٢] القَيْظ[٣٣]، أَمْهِلْنا يُسَبِّخْ[٣٤] عنّا الحَرُّ، وإذا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيْر إليْهم في الشِّتاء قُلْتُمْ: هذه صَبَارَّة[٣٥] القُرِّ[٣٦]، أَمْهِلْنا يَنْسَلِخ عنّا البَرْد، كُلُّ هذا فراراً من الحرِّ والقرِّ، فإذا كُنْتُم من الحرِّ والقرِّ تفرُّون، فإذاً أَنْتُمْ والله من السَّيْف أَفَرُّ؛ يا أَشْباهَ الرِّجال ولا رجال...»[٣٧].

فقد أرادعليه السلام إرْجاعهم إلى صوابهم، وتنبيههم على فداحة خطيئتهم، فذمَّهمْ بأكثر الكلمات تجريحاً وتوْبيخاً، نافياً عنهم حقيقة الرُّجولة، التي تستبْطن في داخلها ـ ولو من منظور المُجْتمع آنذاك ـ قيماً ساميةً، كالشَّجاعة والغيرة والمروءة، نفى هذه الحقيقة عنهم، وإنْ كان لهم شكْلها وظاهرها؛ ثمَّ شبَّه عقولهم (حلومهم) بعقول الأطفال وحلومهم، وهي عقولٌ صغيرةٌ لا تفكِّر بسواها، ولا يبْلغ مدى تفكيرها إلى ما هو بعيدٌ عن مرآها، ولا تَهْتمُّ إلَّا ليوْمها،

بل لساعتها، ثمَّ شبَّههمْ بربّات الحجال، وليس المقصود بهنَّ المرأة مُطْلَقاً، بل هُنَّ النِّساء اللَّواتي لا يكون لهنَّ في بيوتهنَّ شُغْلٌ إلَّا زينتهنَّ وثيابهنَّ وشكْلهنَّ، ولا اهتمام لهنَّ ولا مبالاة بما يدور خارجاً عن عتبة الدّار.

والموقف الثاني:

وهو الصَّبْر عند احتدام القتال، وتحْت وقْع ضرباتٍ إسرائيليَّةٍ مدمِّرة بالقذائف المتطوِّرة الأمريكيَّة الصُّنْع، مُضافاً إلى الضُّغوطات الدَّاخليَّة والخارجيَّة التي كانتْ تسْعى، ولا تزال، إلى القضاء على ظاهرة المقاومة والرَّفْض في لبنان، بل وفي كُلِّ الوطن العربيِّ والإسلاميّ، رغْم كُلِّ ذلك، فقد كان مجاهدو المقاومة ورجالها يزدادون يقيناً واطْمئناناً كلّما اشْتدَّتْ عليْهم وطْأة الحرْب، ولمْ يقفوا وقْفة بعْض المتخاذلين الذين كانوا في جيش صفِّين زمن أمير المؤمنين عليه السلام، والذي عبَّر عنه عليه السلام في كلامٍ وجَّهه للخوارج عندما خرج إلى معسكرهم، وهُمْ مُقيمون على إنكار الحكومة، قال عليه السلام: «**فامْتازوا فرْقتيْن، فلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صفِّين فرْقةً، ومَنْ لمْ يَشْهَدْها فِرْقةً، حتَّى أُكَلِّم كُلاًّ بكلامه**». ونادى النَّاس فقال: «**أَمْسِكوا عن الكلام وأَنْصِتوا لقَوْلي، وأَقْبِلوا بأفْئِدَتكُمْ إليَّ، فَمَنْ نَشَدْناه شهادةً فلْيَقُلْ بعِلْمِهِ فيها**». ثمّ كلَّمهم عليه السلام بكلامٍ طويلٍ، منه: «**أَلَمْ تَقولوا عنْد رَفْعِهِم المصاحف حِيلةً وغيلةً**[٣٨]، **ومَكْراً وخديعةً: إخْواننا وأَهْل دَعْوتنا، اسْتَقالونا واسْتَراحوا إلى كتاب الله سُبْحانه، فالرَّأْي القبول منهم والتَّنفيس عنهم، فقُلْتُ لَكُمْ: هذا أَمْرٌ ظاهره إيمانٌ وباطنه عُدْوان، وأَوَّلُه رَحْمةٌ وآخِرُه ندامةٌ، فأَقيموا على شَأْنكم، والْزَموا طريقتكم، وعضُّوا على الجهاد بِنَواجذكُمْ، ولا تَلْتَفِتوا إلى ناعقٍ نَعَق، إنْ أُجيبَ أضلّ، وإنْ تُرِكَ ذَلّ، وقَدْ كانت هذه الفَعْلة، وقد رأيْتُكمْ أَعْطَيْتُموها**»[٣٩].

فهو عليه السلام قد ذكَّرهمْ بالحيلة التي استخْدمها معاوية وجنوده في صفِّين، والتي انْطلتْ عليْهم على الرُّغْم من تحذير الإمام عليه السلام لهم آنذاك، وإخباره إيّاهم مُسْبَقاً

بعواقب الانجرار وراء هذه الخديعة والالْتفات إليْها، وأنَّهم إنْ استجابوا لنداءات الفتنة والغدْر والمكر التي أطْلقها جيش الدَّاهية، فسيضلُّون الطَّريق، وإنْ لمْ يُطيعوا الأوامر القاضية بالْتزام طريق الجهاد والعضِّ على النَّواجذ، فسيُضيِّعون جهادهم وتضحياتهم السَّابقة هباءً منثوراً.

ولم تكن العاقبة والنَّتيجة إلَّا كما أخْبرعليه السلام وحدَّث، فقد أدَّتْ مخالفة هؤلاء وعصْيانهم إلى ضلالهم وضعْف أركان الدَّوْلة، بل انهيارها في نهاية المطاف، حتَّى تسلَّط على رقاب المُسْلمين الفسَّاق والمُجْرمين ومَنْ أبْعَدَهم رسول اللهﷺ ولعنهم في حياته، كما قالعليه السلام:

«وأَيْمُ الله[٤٠] لتَجِدَنَّ بَني أُمَيَّة لكُمْ أرْبابَ سُوءٍ بَعْدي، كالنَّاب[٤١] الضَّروس[٤٢]، تَعْذِم[٤٣] بفيها وتَخْبِط[٤٤] بيَدِها، وتَزْبِن[٤٥] برِجْلِها، وتَمْنَع دَرَّها، لا يزالون بكُمْ حتَّى لا يَتْرُكوا منكم إلَّا نافعاً لهم، أو غيْر ضائرٍ بهمْ، ولا يَزال بلاؤهم حتَّى لا يكون انتصار أَحَدِكم منْهم إلَّا كانتصار العبْد مِنْ ربِّه، والصّاحب مِنْ مُسْتَصْحِبه، تَرِد عليْكم فتْنتهم شَوْهاء[٤٦] مَخْشيَّة، وقِطَعاً جاهليَّة، ليْس فيها منار هدى، ولا عَلَمٌ يُرى[٤٧]».

فإنَّ ظُلْم بني أُميَّة عمَّ جميع النَّاس طيلة فترة حُكْمهم، حتَّى أُولئك الذين تعاموا عن جرائمهم وانحرافاتهم، وإنْ كان البلاء الأعظم قد اخْتصَّ به الأئمَّة الأطهارعليهم السلام وشيعتهم، من جهة أنَّهم عرفوا خطرهم على الدِّين ونبَّهوا النَّاس منه.

وكذلك قوْلهعليه السلام واصفاً هذا الظُّلْم الذي حاق بالأُمَّة في دوْلة بني أُميَّة:

«والله لا يزالون، حتَّى لا يَدَعوا لله مُحَرَّماً إلَّا اسْتَحَلُّوه، ولا عَقْداً إلَّا حَلُّوه، وحتَّى لا يَبْقى بَيْتُ مَدَرٍ[٤٨] ولا وَبَرٍ[٤٩] إلَّا دَخَلَه ظُلْمُهمْ، ونَبَا به سوء رَعْيِهم، وحتَّى يَقوم الباكيان يَبْكيان؛ باكٍ يَبْكي لدِينه، وباكٍ يَبْكي لدُنْياه، وحتَّى تكون نُصْرة أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كنُصْرة العَبْد مِنْ سَيِّده، إذا شَهِدَ أطاعَهُ، وإذا غابَ

اغْتابَه، وحتَّى يكون أَعْظَمُكُمْ فيها غِناءً أَحْسَنُكُمْ بالله ظَنّاً، فإنْ أتاكُمْ الله بعافيةٍ فأَقْبِلوا، وإنْ ابْتُلِيتُمْ فاصْبِروا، فإنَّ العاقبة للمتَّقين»[٥٠].

وقد أخذ ظُلْمهمْ هذا أشكالاً ثلاثة:

أ. أنَّهمْ لم يدعوا محرَّماً إلَّا استحلُّوه، وحالهمْ في الظُّلْم وقتْل النَّفْس بغير نفْسٍ لمجرَّد الشُّبهة مشْهورٌ ومعروف، وهي من كبائر المحرَّمات والمعاصي، فما بالك بغيْرها؟! والتعبير بكلمة «استحلُّوه» للإشارة إلى أنَّ تجاوزهمْ وعصْيانهم لمْ يكنْ في ارْتكاب المعاصي فحسْب، بل في التَّعامل مع المحرَّمات معاملة سائر النَّاس مع الحلال والمباح.

ب. أنَّهمْ لمْ يدعوا عقْداً من عقود الإسلام وقوانينه وضوابطه، التي من خلالها تمَّ تنظيم المُجْتمع الجاهليِّ وارتقاؤه وعلوّ شأْنه، إلَّا حَلُّوه، وأصرُّوا على القضاء عليْه.

ج. أنَّه لمْ يَبْقَ بيْت مدرٍ ولا وبرٍ إلَّا دخله ظُلْمهم.

وكان من نتائج هذا الظُّلْم والفسْق والتهتُّك من جهة ـ والذي صار يُعْرَف به خلفاؤهم والعتاة منهم[٥١] ـ وهذا العصْيان والتَّخاذل وعدم الإطاعة لأُولي الأمر من جهةٍ ثانية، الأمور التَّالية:

أ. أنْ يقوم الباكيان، باكٍ يَبْكي لدينه، وآخر لدُنْياه، فالضَّرر الذي سبَّبه بنو أميَّة للنَّاس، تعرَّض تارةً لدينهم وآخرتهم؛ إذْ انتشر الفساد والفجور، وعمَّتْ المعاصي، وهذا طبيعيٌّ، فإنَّ فساد الحاكِم موجبٌ لفساد النَّاس؛ لأنَّ النَّاس على دين ملوكهم، كما هو معروف. وأُخْرى تعرَّض لنفْس دُنْياهمْ، فلمْ يَسْلمْ أحدٌ على الإطْلاق من شرورهم؛ لأنَّ طالب الدُّنْيا لمْ يصلْ إليْها في عهْدهم، وطالب الآخرة انحرف عن طلبته، وضلَّ عن سبيله، إلَّا القليل القليل ممَّنْ شاء الله له النَّجاة والهداية من المُخْلصين والمتَّقين.

ب. أنَّ أحوال النَّاس تغيَّرت وتبدَّلتْ وانقلبتْ، وزال الصَّفاء من القلوب،

وتحوَّلتْ المودَّة نفاقاً ومداراةً في أحسن الأحوال، وغلاً وحقْداً ظاهراً في كثيرٍ من الأحيان، إذْ كانتْ نُصْرة أحدهم للآخر كنُصْرة العبْد من سيِّده، إذا حضر السَّيِّد أطاعه العبْد، وإذا غاب اغتابه ولمْ يترْكْ عيْباً فيه إلَّا أفْشاه وفضحه.

ج. أنَّ العناء والظُّلْم كان أشدّ على المؤمن الذي أَحْسَنَ الظَّنَّ بربِّه، وابْتعد عن مصانعتهمْ وتملُّقهم والسَّيْر في مواكبهم والأخْذ بسيرتهم، فكلَّما اشتدَّ إيمانه بالله وازداد حُسْن ظنِّه به تعالى، ابْتعد عنهم وجافاهم، فكانوا أشدَّ عليْه أذىً وعُدْواناً.

والموقف الثّالث:

وهو ما رأيْناه عند انتهاء الحرْب، من التَّسليم لقضاء الله، والرِّضا بحُكْمه وما أنزله من البلاء؛ إذْ لمْ نسْمع من رجال الله في حزب الله أنَّهم اعترضوا على قيادتهم اعتراضاً واحداً، بل إنَّ ردود أفعالهم خلتْ حتَّى من مجرَّد اللَّوْم والعتاب.

ولمْ تكنْ هذه ردَّة فعْل المجاهدين فقط، بل هي ـ أيْضاً ـ ردَّة فعْل النَّاس من جماهير المقاومة، الذين احتضنوها وقدَّموا لها الدَّعْم المعنويَّ والماديَّ، وبشتَّى الوسائل والإمكانيّات المتاحة لهم، على الرُّغْم من أنَّ بيوتهم تهدَّمتْ، وعائلاتهم تشرَّدتْ وهُجِّرتْ، وعلى الرُّغْم من كُلِّ الدِّماء التي سقطتْ، وأحلام الأطفال التي انتُهِكتْ، على الرُّغْم من المجازر والمذابح، كلُّ ذلك، لمْ يجْعلْهم يَنْقلبون على مبادئهم التي يُؤْمنون بها، هذا الشَّعْب المُعْجزة، الذي ضحَّى بكُلِّ ما يَسْتطيعه في نُصْرة هذا الخطِّ، الذي يراه امتداداً لكربلاء الحُسيْن عليه السلام، ولمْ يكنْ كالمتخاذلين الذي أدْخلوا الحُزْن والأسى إلى قلْب إمامهم، سيِّد المتَّقين وأمير المؤمنين عليه السلام، إذْ قالوا له بعد الفراغ من معركة صفِّين: الحُكْم لله يا عليُّ لا لك، إنَّ الله قد أمْضى حُكْمه في معاوية وأصْحابه أنْ يَدْخلوا تحْت حُكْمنا، وقد كُنَّا زللْنا وأخْطأْنا حين رضينا بالتَّحكيم، وقد بان لنا خطؤنا وزللنا، ورجعْنا إلى الله وتُبْنا، فارْجعْ

أنْتَ كما نحن رجعْنا، وتُبْ إلى الله كما نحْن تُبْنا، وقال بَعْضهم: إنَّك قد أخْطأْتَ، فاشْهَدْ على نفْسك بالكُفْر، ثمَّ تُبْ منه حتَّى نطيعك[٥٢].

فأجابهم عليه السلام: «**أبَعْد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله أشْهَدُ على نفْسي بالكُفْر؟! لقدْ ضللْتُ إذاً وما أنا المُهْتدين[٥٣]**»[٥٤].

فللَّه درُّك يا أبا الحسن، يا أمير المؤمنين، كمْ تحمَّلْتَ من عناء، وكمْ حلَّ بك من بلاء، ومن رعيَّتك وشعبك قبْل الأعداء.

٤) الاستفادة الكاملة من الإرْث الجهاديِّ العَلَويّ

لقد أسَّس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لثقافةٍ جهاديَّةٍ عظيمة يتحقَّق النَّصْر من خلال الالْتزام بها، وقد حوى نهْج البلاغة على الكثير من المقاطع التي تُشير إلى الخطوط العامَّة لهذا المنْهج، ونُشير إليْها من خلال النُّقاط التّالية:

النُّقْطة الأُولى:

الشَّجاعة وعدم الخوْف من الأعداء، مهما بلغتْ إمكاناتهم، وكبر عددهم، فإنَّ الخوْف والخشْية من العدوِّ يؤدِّي لا محالة إلى الهزيمة، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة عندما قيل له: بأيِّ شيءٍ غلبْتَ الأقران؟؟ فقال عليه السلام: «**ما لَقيتُ أحداً إلَّا أعانني على نفْسه**»[٥٥].

قال الرَّضيُّ رحمه الله: «يُومئ بذلك إلى تمكُّن هيْبته في القلوب».

والذي نسْتفيده من هذا المقطع الشَّريف من كلامه: أنَّ الإنسان لكي يتمكَّن من هزيمة عدوِّه، فعليْه أنْ يتمتَّع بحالةٍ من الشَّجاعة وعدم الخوْف، وأنْ لا يدع هيْبة عدوِّه تسْبق وتتسرَّب إلى نفْسه، ولا يَسْمح للخيال أنْ يلْعب دوْره في تهْويل قوَّة العدوِّ وقدراته وشدَّة ضرباته؛ لأنَّ ذلك من شأْنه أنْ يُولِّد الضَّعْف في النَّفْس، والخوْف في المعركة، وهيْ أُولى وأهمُّ أسباب الهزيمة.

وكذلك قوْله عليه السلام: «**والله لو تظاهرت العَرَب على قتالي لَمَا ولَّيْتُ عنها، ولو أمْكَنت الفُرَص من رقابها لسارعْتُ إليْها، وسأَجْهَد في أنْ أُطهِّر الأرْض من هذا**

الشَّخْص المعكوس، والجسْم المرْكوس[٥٦]، حتَّى تَخْرج المَدَرة من بين حَبِّ الحصيد»[٥٧].

والسِّرُّ في هذه الشَّجاعة، التي صارتْ تنتمي إلى عليٍّ عليه السلام بدل أنْ يَنْتمي هو إليْها:

أوَّلاً: الإيمان الرّاسخ واليقين والبصيرة، والتي كان يقوِّيها شدَّة قُرْبه من رسول الله صلى الله عليه وآله والْتصاقه به وتبعيَّته له تبعيَّة الفصيل أثر أمِّه.

وثانياً: أنَّه عليه السلام صاحب حقٍّ ومبدأ وقضيَّة يُدافع عنها، وصاحب الحقِّ والمبدأ يُقاتل الدُّنْيا في سبيل قضيَّته، ولمّا كانتْ قضيَّته عليه السلام هي قضيَّة هداية الخلْق، وتطهير الأرض، كلِّ الأرض، من الظُّلْم والفساد، والقضاء على كُلِّ مظاهر الجاهليَّة العمياء، كان لا بدَّ من الاجتهاد في قتال أئمَّة الكُفْر والظُّلْم، وأنْ يتمَّ إخْراجهمْ من المُجْتمع الإسلاميّ ونبذهم، تماماً كما تُنْبذ المدرة وتُرْمى، ويتمَّ إخْراجها من بين حبِّ الحصيد؛ إذْ كان لوجودهم داخل هذا المُجْتمع الخطر الكبير بتعدِّي الفساد إلى سائر الأفراد، ولو كانوا صالحين ومؤمنين.

وقد برز هذا الجانب في رجال الله في لبنان، حيث لمْ تُرْعبْهم كُلُّ هذه الجحافل والدَّبّابات والطَّائرات والصَّواريخ والقنابل التي يُسَمُّونها «ذكيَّة»، لمْ يخافوا من جيْش النُّخْبة، ولمْ يهابوا قذائفهم، ولمْ يُفْزعْهم دعْم القوى العُظْمى، وعلى رأسها الشَّيْطان الأكبر أمريكا لهم، بل تصدُّوا للعُدْوان على الأُمَّة بكُلِّ بسالةٍ وإقدام، الأمر الذي جعل الجيْش الإسرائيليّ أضحوكةً بين الأمم؛ إذْ أخْفق في تمكين السَّيْطرة على قرْيةٍ صغيرةٍ واحدةٍ من القرى الجنوبيَّة الآمنة في غضون ٣٣ يوْماً.

ولو أنَّ الهيْبة دخلتْ إلى نفوسهم، أو أنَّ الخوْف كان مُعَشْعشاً في قلوبهم، لكان الاستسلام والتَّخاذل والهروب مصيرهم عند إطْلاق أوَّل رصاصةٍ، كما حدث في حرب عام ١٩٦٧م، عندما قامتْ إسرائيل باحتلال ثلاثة أضعاف

مساحتها خلال سبعة أيَّامٍ فقط، مع أنَّ الجيْش المواجه والمقابل لها كان أكبر منها عدداً وأكثر عُدَّةً.

والنُّقْطة الثَّانية:

الالْتزام بجُمْلةٍ من الوصايا التي تُساعد على الثَّبات في المعركة، وتؤدِّي إلى الانتصار فيها، كالذي قالهعليه السلام: «**تَزولُ الجبالُ ولا تزُلْ، عَضَّ على ناجِذِك**[٥٨]، **أَعِرِ الله جُمْجمتك، تِدْ**[٥٩] **في الأرْض قدَمَك، ارْمِ ببصرك أقْصى القوْم، وغُضَّ بصرك**»[٦٠].

فالثَّبات وعدم الزَّوال ينْبغي أنْ يكونا كثبات الجبال ورسوخها، بل أشدُّ، وعلى المجاهد أنْ يُثَبِّت قدمه في الأرْض، فلا يهون ولا يزول ولا يتراجع قيْد أنملة، ولو رأى الجبال تميد وتهْتزُّ أمام عيْنيْه.

كما أمرهعليه السلام بالعضِّ على ناجذه، وهو كنايةٌ عن رباطة الجأْش، وشدَّة العزْم؛ لأنَّ الخائف الجبان يرْتجف ويَرْتعد ويَرْتعش، فإذا عضَّ على أضْراسه سكنتْ رعْدته وتمالك بدنه.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ثمَّ أكَّدعليه السلام على لزوم أنْ يُحافظ المجاهدون على الهدف نصْب أعينهم، فيُذْركوا أنَّ جهادهم بعيْن الله، بمرْأىً منه، وأنَّهم بجهادهم هذا قد صاروا محطَّ عناية الله ورحْمته، فإذا قاتلوا فإنَّما يُقاتلون بسلاح الله وقُدْرته، وإذا أُصيبوا فإنَّما إصابتهمْ بمثابة عاريةٍ قدَّموها لله، والله خيْر مَنْ يردُّ العارية ويُحافظ عليْها، وفي ذلك تثْبيتٌ لهمْ وربْطٌ لقلوبهم.

فإذا تأكَّد هذا الهدف في نفوسهم، واستذكروه واستيقنوا به، كانوا على أتمِّ الاستعداد للحرب والمواجهة، فعلى كلٍّ منهم حينئذٍ أنْ يُصرَّ على تحقيق وإنجاز هذا الهدف، فلْيَرْموا ببصرهم أقْصى القوْم، إمَّا لأنَّ الذي قَصَد أقْصى القوْم، لا بدَّ له من خرْق صفوفهم وقتْل جميع مَنْ يقف منهم في طريقه إلى هذا المقصد، أو لأنَّ مَنْ يرمي أقْصى القوْم ببصره، يتمكَّن من الاطِّلاع على خططهم العسْكريَّة

وتوْزيع كتائب جيْشهم وألْويته.

وفي هذا السَّيْر الهجوميّ، لا بدَّ للمجاهد أنْ يَحْرص في كُلِّ لحْظةٍ ودقيقةٍ أنْ يبْتعد عن كُلِّ ما يولِّد الرَّهْبة في نفْسه، فلذا أمره عليه السلام بغضِّ البصر، وعدم الإمعان في عدَّتهم، وأسْلحتهم، وبريق سيوفهم، أو وقْع ضرباتهم وشدَّتها، فإنَّ ذلك كفيلٌ بالإبقاء على شعْلة الشَّجاعة في النُّفوس وهّاجةً مُلْتهبةً ومُشْتعلة.

والنُّقْطة الثّالثة:

الإيمان والاعتقاد بالنَّصْر، وأنَّه مِنْ عند الله، وحْده، مهما كانتْ قوَّة الأعداء، ومهما بلغتْ كثْرتهم، قال عليه السلام: «**واعْلَمْ أنَّ النَّصْر مِنْ عند الله سُبْحانه**»[٦١].

فإنَّ الذي يحْصل لديْه يقينٌ كهذا، وهو يُؤْمن بالله ويُجاهد في سبيله، يتأكَّد من حصول النَّصْر لمصْلحته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٦٢]، فالمراد بنصْرهم لله: أنْ يُقاتلوا لوجْهه فقط، وفي سبيل إعلاء دينه، لا لمصالحهم الشَّخْصيَّة، كالفوْز بالغنائم أو تحصيل الثَّأْر أو ليُوصَفوا بالشَّجاعة؛ والمراد بنصْر الله لهمْ: تهيئته الأسباب المؤدِّية إلى الانتصار على عدوِّهم وعدوِّه، كإلْقاء الرُّعْب في قلوبهم وتكثير المؤمنين في عيونهم، وتشجيع المؤمنين والرَّبْط على قلوبهم.

وقد استفاد المجاهدون اللُّبنانيُّون في حزب الله من هذه الوصايا خير استفادة، كما يدلُّ عليْه ما جاء في الرِّسالة التي بعثها لهم سيِّد المقاومة سماحة السَّيِّد حسن نصر الله.

والمأمول من أمَّتنا الإسلاميَّة، أنْ تقرأ بتمعُّنٍ ما جرى في هذه الحرْب الأخيرة، في أبعادها ودلالاتها ونتائجها، سائلين الله تعالى أنْ يُعيد هذا النَّصْر علينا، وأنْ تكون أيّامنا كلَّها أيّام انتصارٍ لا هزيمة، وأنْ يمنَّ على هذه الأُمَّة، بل على البشريَّة جمعاء، بظهور مُنْجي هذا العالَم، الذي سيمْلأ الأرض قسْطاً وعدْلاً بَعْدما مُلِئتْ ظُلْماً وجوْراً، إنَّه سميعٌ مجيب الدُّعاء.

* * *

الهوامش:

(١) هو سفيان بن عوف بن المغفل الغامديّ، وغامد قبيلةٌ من اليمن، وهي من الأزد، أزد شنوءة، واسم غامدٍ: عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، وسُمّي غامداً، لأنّه كان بين قوْمه شرٌّ فأصْلَحه وتغمَّدهم بذلك. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢: ٨٥.

(٢) الأنبار: بلْدةٌ على الفرات من الجانب الشَّرْقيّ وهيت من الجانب الغربيّ. مجمع البحرين: ٤: ٢٦٣.

(٣) المسلحة: القوم الذين يحفظون الثُّغور من العدوّ، وسُمُّوا مسلحةً؛ لأنّهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنّهم يَسْكنون المسلحة، وهي كالثَّغْر والمرقب يكون فيه أقوامٌ يرْقبون العدوَّ لئلاّ يطرقهم على غفلة، فإذا رأوْه أعْلموا أصحابهم ليتأهَّبوا له، وجمْع المسْلح: مسالح. النّهاية في غريب الحديث: ٢: ٣٨٨.

(٤) المُعاهد: الذِّمّيّ؛ لأنّه مُعاهدٌ ومبايعٌ على ما عليْه من إعطاء الجزية والكفّ عنه. كتاب العين: ١: ١٠٢.

(٥) الحجل: الخلخال. كتاب العين: ٣: ٧٩.

(٦) القلب من الأسورة: ما كان قلداً واحداً، وتقول: سوار قلب، وفي يدها قلب. كتاب العيْن: ٥: ١٧١.

(٧) القلادة: ما جُعِل في العنق، يكون للإنسان والفرس والكلب والبدنة التي تُهْدى ونحْوها. لسان العرب: ٣: ٣٦٦.

(٨) الرَّعث والرَّعثة: ما علق بالأذن من قرْطٍ ونحْوه، والجمْع: رعثة ورعاث. لسان العرب: ٢: ١٥٢.

(٩) الاسترجاع: ترديد الصَّوْت في البكاء. مجمع البحرين: ٢: ١٥٠.

(١٠) الكلم: الجراحة، والجمْع: كلوم وكلام. الصّحاح: ٥: ٢٠٢٣.

(١١) الخطبة ٢٧ نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ٦٩.

(١٢) فصِّلت: ٣٠.

(١٣) الخطبة ١٧٦، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده، ٢: ٩٣.

(١٤) تبوَّغ الدَّم بصاحبه وتبيَّغ به، أي: هاج به. الصِّحاح: ٤: ١٣١٧.

(١٥) الخطبة ٢١٠، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٢: ١٨٨.

(١٦) الجشع: أسوأ الحرْص، وقيل: هو أشدُّ الحرْص على الأكل وغيره، وقيل: هو أنْ تأخذ نصيبك وتطمع في نصيب غيرك. لسان العرب: ٨: ٤٩.

(١٧) الحجاز: مكَّة والمدينة والطّائف ومخاليفها، لأنَّها حجزتْ بين نجْدٍ وتهامة، أو بين نجْدٍ والسَّراة، أو لأنَّها احتجزتْ بالحرار الخمس، حرَّة بني سليم وواقم وليلى وشوران والنّار. القاموس المحيط: ٢: ١٧٢.

(١٨) اليمامة: الصَّقْع المعروف شرقي الحجاز، قريب من البحريْن، ومدينتها العُظْمى حجر اليمامة، قال: وإنَّما سُمِّي اليمامة باسْم امرأةٍ كانتْ فيه تسكنه اسْمها يمامة صُلِبَتْ على بابه. لسان العرب: ١٢: ٦٤٨، مُعْجم ما استعجم: ٤: ١٣٢٠.

(١٩) المبطان: الذي لا يزال عظيم البطْن من كثرة الأكل. الصِّحاح: ٥: ٢٠٨٠.

(٢٠) الغرْثان: الجائع. كتاب العيْن: ٤: ٤٠٠.

(٢١) الحرّان: العطشان. كتاب العين: ٣: ٢٤.

(٢٢) القدّ: جلْد السَّخْلة الماعزة. ترتيب إصلاح المنطق: ٣٠١.

(٢٣) الكتاب ٤٥، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٣: ٧٢.

(٢٤) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطّائي القحطاني، أبو عديّ، فارسٌ شاعرٌ جوادٌ جاهليٌّ، يُضْرَب المَثَل بجُوده، كان مِنْ أهْل نجْدٍ، وزار الشّام فتزوَّج ماوية بنت حجر الغسّانيَّة، ومات في عوارض (جبلٌ في بلاد طيء)، قال ياقوت: وقبر حاتم عليْه. شعْره كثيرٌ ضاع مُعْظَمه، وبقي منه (ديوان ـ ط)، صغير، وأخباره كثيرةٌ متفرِّقةٌ في كتب الأدب والتّاريخ، وأرَّخوا وفاته في السَّنة الثّامنة بعْد مَوْلد النَّبيِّ صلَّى الله عليْه وسلَّم. الأعلام: ٢: ١٥١.

(٢٥) العنكبوت: ١ـ ٢.

(٢٦) الخطبة ١٥٥، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٢: ٥٠.

(٢٧) آل عمران: ١٩٥.

(٢٨) الظَّلع: الغمز، كأنَّ برجْله داءً فهو يظْلع، قال كثير:

وكُنْتُ كذات الظَّلْع لمّا تحاملتْ على ظلْعها يوْم العثار اسْتقلَّت

يَصِف عشْقه، أخْبَرَ أنَّه كان مثْل الظّالع من شدَّة العشْق، فلمّا تحامل على الهجْر استقلَّ حين حمل نفْسه على الشِّدَّة، وهو كإنسانٍ أو دابَّةٍ يصيبها حمر، فهي أقلُّ ما تركب غمز صدرها، ثمَّ يَسْتمرُّ يقول: لمّا رأى النّاس، وعلم أنَّه لا سبيل له إليها حمل نفْسه على الصَّبْر فأطاعتْه. كتاب العيْن: ٢: ٨٦.

(٢٩) سورة النِّساء: ٥٩.

(٣٠) العهد: ٥٣، نهْج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٣: ٩٤.

(٣١) تفسير الميزان: ٤: ٣٩٨.

(٣٢) الحمارة ـ بفتح الحاء والميم مخفَّفةً وتشديد الراء ـ: شدَّة الحرّ. شرح شافية ابن الحاجب ـ رضيّ الدِّين الأسترآبادي: ١: ٢٥٢.

(٣٣) قائظ، أي: شديد الحرّ. النِّهاية في غريب الحديث: ٤: ١٣٢.

(٣٤) يسبِّخ عنّا الحرّ، أي: يخفُّ. النِّهاية في غريب الحديث: ٢: ٣٣٢.

(٣٥) الصبارَّة: شدَّة البرد، وهي بزنة الحمارَّة. شرْح شافية ابن الحاجب ـ رضيّ الدِّين الأسترآباذي: ١: ٢٥٢.

(٣٦) القر والقرة والبرد، تقول: يومٌ ذو قرٍّ وذو قرَّة. ترتيب إصْلاح المنطق ـ ابن السِّكِّيت الأهوازي: ٣٠٢.

(٣٧) الخطبة ٢٧، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ٧٠.

(٣٨) الغيلة ـ بالكسْر ـ: الاغتيال، يُقال: قَتله غِيلةً، وهو أنْ يَخْدعه فيذهب به إلى موضعٍ، فإذا صار إليْه قتله. الصِّحاح: ٥: ١٨٧٨.

(٣٩) الخطبة ١٢٢، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ٢٣٦.

(٤٠) أيْم الله، من ألْفاظ القسم، كقوْلك: لعَمْر الله، وعهْد الله، وفيها لغاتٌ كثيرة، وتُفْتَح همزتها وتُكْسَر، وهمْزتها وصْلٌ وقد تُقْطَع، وأهل الكوفة من النُّحاة يَزْعمون أنَّها جمْع (يمين)، وغيرهم يقول: هي اسْمٌ موْضوعٌ للقسم. النِّهاية في غريب الحديث: ١: ٨٦.

(٤١) النّاب: النّاقة المسنَّة، والجميع: نيب وأنياب. كتاب العيْن: ٨: ٣٨١.

(٤٢) الضَّروس: التي تعضُّ. لسان العرب: ٦: ١٤٠.

(٤٣) العذم: العضُّ والأكْل بجفاء. يُقال: فرسٌ عذوم، للذي يعذم بأسنانه، أي: يكدم. الصِّحاح: ٥: ١٩٨٣.

(٤٤) الخبط: شدَّة الوطء بأيدي الدَّوابّ، وتخبطت الشَّيء: توطأته. كتاب العين: ٤: ٢٢٣.

(٤٥) الزَّبن: دفْع الشيء عن الشيء، كالنّاقة تزبن ولدها عن ضرعها برجْلها، كتاب العين: ٧: ٣٧٤.

(٤٦) الشَّوْهاء: قبيحة المنظر. مختصر المعاني ـ سعد الدِّين التفتازانيّ: ٢٧٧.

(٤٧) الخطبة ٨٩، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ١٨٢.

(٤٨) المدر: قطع طينٍ يابس، الواحدة مدرة. كتاب العين: ٨: ٣٨.

(٤٩) الوبر: صوف الإبل والأرنب وما أشبههما. كتاب العين: ٨: ٢٨٦.

(٥٠) الخطبة ٩٨، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ١٩١.

(٥١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢: ٤٦٦ ـ ٤٦٧، في شأن عبد الملك بن مروان والفتن في عهْده.

(٥٢) وقعة صفِّين ـ المنقري: ٥١٣.

(٥٣) الأنعام: ٥٦.

(٥٤) الخطبة: ٥٨، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ١٠٦.

(٥٥) الحكمة ٣١٨، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٤: ٧٥.

(٥٦) المركوس: المدبر عن حاله، والرَّكْس: ردّ الشَّيء مقلوباً. لسان العرب: ٦: ١٠١.

(٥٧) الكتاب ٤٥، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ٣: ٧٣.

(٥٨) النّاجذ: آخر الأضراس. غريب الحديث: ١: ٣٦٢.

(٥٩) الوتد، معروفٌ، وجمْعه أوتاد، وتقول: تدْ يا فلان وتدا. كتاب العيْن: ٨: ٥٥.

(٦٠) الخطبة ١١، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ٤٣.

(٦١) الخطبة ١١، نهج البلاغة ـ محمَّد عبده: ١: ٤٣.

(٦٢) محمَّد: ٧.